اصل كلمة الديوان ومعناها:

ذكرت المعاجم اللغوية ان للديوان خمسة معانٍ هي: (الكتبة ومحلهم، والدفتر، وكل كتاب، ومجموع الشعر)، وقد استخدمها العرب للدلالة على المعاني المذكورة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (اذا قرأتم شيئاً من القرآن، ولم تعرفوا عربيته، فأطلبوه من شعر العرب فأنه ديوانهم).

وأصل كلمة ديوان فارسية ثم عربت، وكان الفرس يستعملونها للدلالة على الكتبة ومحلهم، ولعل سبب التسمية هو: (ان كسرى امر الكتاب ان يجتمعوا في دار ويعملوا له حساب السواد في ثلاثة ايام واعجلهم فيه فأخذوا في ذلك واطلع عليهم لينظر ما يصنعون فنظر إليهم يحسبون بأسرع ما يمكن ويحسنون ذلك، فعجب من كثرة حركتهم، وقال: اي ديوانه، ومعناه مجانين، وقيل معناه شياطين، فسمي موضعهم ديواناً).

أما الديوان اصطلاحا فهو: (المكان الذي يتم فيه تسجيل كل ما يتعلق بشؤون الدولة، بما في ذلك الأعمال التجارية والمالية والجيوش والعمال).

نشأت الدواوين:

يعتبر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من دون الدواوين، حيث ظهرت الدواوين في عهده، وتوسعت الدولة الإسلامية في ذلك الوقت، ووجدت الدواوين المتخصصة، وكان يتم تعيين الرؤساء لهم، ويعود سبب احداث الديوان نتيجة الى حاجة المسلمين الى التنظيم العسكري والمالي وبدأت بطبيعة الحال بسيطة ومحدودة ثم نمت بحسب تطور الظروف، ان استحداث الخليفة عمر رضي الله عنه للديوان انما اراد به ان يجعل من العرب أمة عسكرية ليوجهها للجهاد في سبيل الاسلام،

فأراد ان يخصص للمقاتلة رواتب واعطيات من بيت المال تكفيهم مؤونة العمل، بأن يحفظ سجلاً بأسماء المحاربين واهليهم، بالإضافة لكثرة الاموال الواردة من الفتوحات العربية الاسلامية خاصة القادمة من البحرين والتي قدرت بخمسمائة الف درهم، فخطب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بالمسلمين قائلاً: (انه قد جاء مال كثير فأن شئتم ان نكيل لكم كلنا، وان شئتم ان نعد لكم عددنا، وان شئتم ان نزن لكم وزنا لكم، فقال رجل من القوم: يا امير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها)، فدوّن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الديوان الى جانب رغبته في تنظيم توزيعها وتثبيت مقاديرها بأسماء مستحقيها وتوفير ما زاد عن حاجة المسلمين للضرورات المقبلة.

وتذكر المصادر التاريخية عن استشارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، المسلمين في تدوين الدواوين، وأن علي بن أبي طالب عليه كرم الله وجهه، قال له: (تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تمسك منه شيئاً)، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (أرى مالاً كثيراً يسع الناس وإن لم يحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمور)، فدعا كتّابه وكانوا من نساب قريش، فقال: أكتبوا الناس على منازلهم فبدأوا ببني هاشم، ثم اتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة، فلما نظر إليه عمر قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدأوا بقرابة النبي عليه الصلاة والسلام فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله).

وكان تدوين الدواوين سنة ٢٠هـ، بدأ ببني هاشم في الدعوة ثم الأقرب فالأقرب برسول الله عليه الصلاة والسلام، فكان القوم إذا استووا في القرابة برسول الله عليه الصلاة والسلام، قدم أهل السابقة، وفرض لأهل الديوان، ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار ففرض لكل رجل منهم خمس آلاف درهم في كل سنة حليفهم ومولاهم معهم بالسواء، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة، ومن شهد أحداً أربعة آلاف درهم لكل رجل منهم،

وفرض لأبناء البدرين ألفيين درهم، إلا حسناً وحسيناً عليهم السلام، فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهم برسول الله عليه الصلاة والسلام، ففرض لكل واحد منهم خمسة آلاف درهم، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف درهم لقرابته من الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد اجمعوا بأنه لم يفضل أحداً على أهل بدر إلا أزواج النبي عليه الصلاة والسلام، وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح ألفيين، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن الكريم وجهادهم، ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً فألحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة خمسة وعشرين ديناراً لكل رجل، وفرض لأهل اليمن، والشام، والعراق لكل رجل من ألفين إلى ثلاثة آلاف، كما فرض اعطيات اخرى لزوجات المقاتلين وذراريهم بدافع منه على اعالة اهل الجندي المقاتل في سبيل الله عز وجل فيذهب الى ساحة القتال وهو مطمئن على رزق اهله وعياله وكان هذا الرزق متفاوت للزوجات بحسب مكانة ازواجهن المقاتلين، وكان إذا أتي باللقيط فرض له مائة درهم، وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر ما يصلحه، ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصي بهم خيراً ويجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال، كما فرض لناس من الاعاجم مما كانت لهم اهمية في الادارة الاقتصادية.

ومما تقدم نلاحظ مدى شمولية تدوين الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لجميع فئات المسلمين على ان لا يبخس حق كل مسلم ساهم في الفتوحات الاسلامية على اختلاف فتراتها.

وتنقسم الدواوين بحسب منشئها الى:

١ـ **الدواوين المركزية:** هي التي انشأها العرب انفسهم باللغة العربية وكانت في العاصمة المدينة المنورة وهو ديوان الجند الذي انشأه عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما كانت هنالك دواوين للجند في العراق والشام ومصر لتوزيع العطاء على الجند وذراريهم على غرار ما كان في المدينة المنورة .

٢ـ **الدواوين المحلية:** أي الدواوين في الولايات التي حررها او فتحها العرب ، وهي استمرار للدواوين التي كانت في البلاد المفتوحة كالساسانية والبيزنطية وقد ابقاها العرب على وضعها اول الامر، واستمرت تستعمل اللغات الاجنبية كالفارسية في العراق وفارس، والرومية في الشام والقبطية في مصر حتى تم تعريبها زمن الخلفاء الامويين عبد الملك بن مروان والوليد وهشام، كما ان اصول هذه الدواوين ومعاملاتها اتجهت تدريجيا نحو التقارب والانسجام حتى اتخذت شكلا واحدا لكل نوع في مختلف الولايات وانطبعت بطابع الوحدة مثل غيرها من المؤسسات .

التطوير الإداري للدواوين وأنواعها:

اقتضت الحاجة الى تطوير واحداث دواوين جديدة تتناسب وحاجة الدولة لتنظيم شؤونها المختلفة، لذلك تم استحداث الامويون دواوين جديدة بصورة تدريجية يصعب تحديد بدايات نشوء اغلبها، كما ان هذه الدواوين لم تصل درجة التنظيم والاستقرار الا في العصر العباسي، ونستطيع ان نميز الدواوين الرئيسة وكالآتي:

١. ديوان الجند

وقد بقي هذا الديوان على الاساس نفسه الذي وضعه الخليفة المؤسس عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ففية تحفظ سجلات باسماء المقاتلين واوصافهم وانسابهم واعطياتهم ومرتباتهم، وقد تطورت طبيعة هذا الديوان فبعد ان كان يتولى الانفاق على الجند ومن شملهم العطاء، أصبح في العصر الاموي يقوم بوظيفة احصاء اسماء الجند وتسجيل مقدار اعطياتهم.

٢. ديوان الخراج

وهو من اهم الدواوين في الدولة ويتولى تنظيم الخراج وجبايته، وهو من الدواوين المحلية التي كانت موجوده في بلاد الشام وقد احدثه البيزنطيون، وكان الكاتب الاول فيه سرجون بن منصور الرومي حيث كانت اللغة قبل تعريبها يونانية في بلاد الشام.

٣. ديوان الخاتم

في هذا الديوان تحفظ نسخة من رسائل واوامر الخليفة الادارية والعسكرية بعد ان تخرم النسخة الاصلية بالخيط وتختم بالشمع الاحمر بختم صاحب الديوان، وبقي هذا الديوان حتى اواسط الدولة العباسية ثم تحولت اختصاصاته الى الوزراء.

٤. ديوان الرسائل

المعروف ان الرسول عليه الصلاة والسلام استخدم عدة اشخاص لكتابة سجلات الدولة وظلت العادة متبعة في عهد الخلفاء الراشدين حيث استخدموا عددا من الصحابة في تسجيل نشاطات الدولة المختلفة، وفي عهد الامويين اسس ديواناً للرسائل وهو في حقيقته هيئة ادارية للمكاتبات الرسمية تقوم بتحرير رسائل الخليفة الى الولاة ورسائلة الدبلوماسية الى الخارج.

٥. ديوان البريد

ان البريد كان مخصصا لخدمة الدولة لا الناس اي ان الهدف من انشائه كان رسميا ولم تستفد الرعية منه في نقل رسائلهم ورزمهم الا بعد حين، إذ كانت مهمة الديوان الاولى نقل الاخبار بين العاصمة والاقاليم فكان صاحب البريد هو صاحب الاخبار، وكانت له اهمية حربية اذ تشحن محطات البريد بالمقاتلة في اوقات الحرب كما انه كان ينقل الوفود والسفراء العرب والاجانب، وكما كان ينقل الحاجات ويشرف على المسالك والطرق ويرسم الخرائط المناسبة للأقاليم.

٦. ديوان النفقات

كان هذا الديوان يتصل مباشرة ببيت المال اتصالا وثيقا ولعله اتضح في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك فكانت مهمته النظر في المصروفات كافة التي تنفق على الجيش والادارة والخدمات العامة

٧. ديوان الصدقات

وينظر في موارد الزكات والصدقات وتوزيعها الى مستحقيها حسب ما جاء في الشريعة الإسلامية.

٨. ديوان المستغلات

وكان ينظر في ادارة ممتلكات الدولة غير المنقولة من عمارات وحوانيت وابنية وضياع.

٩. ديوان الطراز

يراد بالطراز في الأصل التطريز، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ورجال حاشيته، لا سيما إذا كان فيها شيء من التطريز وعليه أشرطة من الكتابة، ثم اتسع مدلول الطراز، فأصبح يطلق على المصنع والمكان، الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات، ولما زادت عناية الناس بمظاهر الترف والأبهة، تم أنشاء عدد من المصانع عرفت بدور الطراز، فنظمت صناعته بشكل واسع وأصبح أساساً لما حدث من نهضة في صناعة النسيج، لذلك كانت مهمته الاشراف على المصانع التي تنسج الملابس الرسمية والشارات والاعلام.

تعريب الدواوين وأسبابه والنتائج التي ترتبت عليه

جاءت عملية تعريب الدواوين ضمن الخطة المرسومة لسياسة الدولة الإصلاحية التي بدأها الخليفة عبد الملك بن مروان وأكملها الخلفاء الذين جاءوا من بعده والتي تضمنت نقل الدواوين من اللغات الأجنبية، الفارسية، واليونانية، والقبطية إلى اللغة العربية لإزالة النفوذ الأجنبي من مؤسسات الدولة الإدارية والمالية، وكان لتعريب المؤسسات الإدارية (الدواوين) أسباب كثيرة منها:

١ــ إن دخول شعوب وأقوام مختلفة اللغات والديانات إلى الإسلام يعني حاجة هؤلاء الماسة إلى التفقه بالدين وقراءة القرآن الكريم مما شدد الصراع بين اللغة العربية واللغات الأخرى، ومن ثم إلى شيوع اللحن، فكان ان اعتنى المسلمون بضبط قراءة القرآن، عن طريق تمييز الحروف المتشابهة بوضع النقط عليها، لذلك كان التعريب ضرورة ملحة، وكان الحرص على سلامة اللغة العربية من العوامل المهمة التي أدت تعريب الدواوين.

٢ــ كان الهدف وراء التعريب تحقيق وحدة الدولة وتماسكها، إذ أن اختلاف لغات الدواوين يكرّس اختلاف النظم المالية والإدارية، ويعيق عملية تنظيم وتوحيد إدارة الدولة، كما أن تعريب الدواوين يعني إنهاء التأثيرات الشعوبية والعنصرية مما يؤكد سيادة الدولة سياسياً على البلاد المفتوحة.

٣ــ إن استعمال اللغات الأجنبية في الدواوين يعني بقاء هذه اللغات حية وكأنها رسمية، فيتعلمها الناس لحاجة الدولة إليها لكونها طريقاً لتولي الوظائف الكبيرة، وينتج عن ذلك استمرار منافسة هذه اللغات اللغة العربية مما يضعف من شأنها، ويضعف كيان الدولة الأموية، ولذلك كان التعريب جزءاً من سياسة عبد الملك بن مروان الهادفة إلى إعادة تنظيم جهاز الدولة الإداري وتحقيق شخصية الدولة واستقلالها عن النفوذ الأجنبي.

٤ــ كان للعوامل الاقتصادية أثراً مهماً في تعريب الدواوين، فقد كان متولي هذه الدواوين يحصلون على أموال طائلة من عملهم هذا، لذلك كان تعريب دواوين الخراج خطوة أولى باتجاه إعادة تنظيم طريقة جباية الضرائب في الأقاليم، وبذلك يمكن ضبط أعمال تلك الدواوين والإشراف بدقة عليها، فيمنع الغش والتزوير، أي أن تعريب الدواوين هو جزء من خطة الإصلاح المالي الذي كانت الدولة بحاجة شديدة إليه إذ ذاك، ولاسيما في العراق أهم أقاليم الدولة الأموية اقتصادياً، من خلال السيطرة على الشؤون الإدارية عن طريق السيطرة على سجلات الدواوين المالية.

نتائج تعريب الدواوين

حققت حركة تعريب الدواوين على يد الخليفة عبد الملك بن مروان نتائج ذات آثار عظيمة في جميع الميادين السياسية والإدارية والثقافية واللغوية ما زالت نتائجها شاخصة للعيان حتى اليوم ويمكن تحديد نتائج حركة التعريب بما يأتي:

١ــ تحقيق سيادة لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتعزيز مكانتها، وانتصارها على اللغات الأجنبية في الدولة، كالفارسية واليونانية، والقبطية، إذ أصبحت لغة الدين الإسلامي، لغة السياسة والدين والعلم، وأصبحت مادة التفاهم اليومي في كل أنحاء الدولة، فانتشرت الثقافة العربية التي طغت على الثقافات الأخرى، وتفاعلت معها وأذابتها وحلت محلها، إذ اعتبر التعريب من الأحداث الكبيرة والإنجازات الضخمة في المجال الثقافي والسياسي وقد تمّ وفق خطة مدروسة.

٢ــ ظهور فئة مهمة من الكتاب العرب أو الموالي حلّوا محل الكتّاب الفرس والروم في إدارة الدواوين، إذ كان لصالح بن عبد الرحمن مهمة كبيرة في ذلك، حيث يقول عبد الحميد بن يحي المعروف بعبد الحميد الكاتب للخليفة مروان بن محمد: لله در صالح ما أعظم متنه على الكتّاب، وبذلك كان عامة كتاب العراق تلامذة صالح ومن هؤلاء قحذم بن أبي سليم وشيبة بن ايمن، والمغيرة وسعيد ابنا عطية ومروان بن إياس.

٣ــ ظهور حركة الترجمة، من اللغات الأجنبية إلى العربية حيث كانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة أدت إلى نقل الكثير من المصطلحات الأجنبية.

٤ــ كان تعريب الدواوين سبيلاً إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، فكان هذا من أكبر العوامل في انتشار اللغة العربية، كما أن أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي ما زالت إلى وقتنا الحاضر عربية نتيجة للتعريب، فاللغة العربية هي الأداة التي جعلت مجتمع العرب يتسع رويداً رويداً حتى صارت حدوده تمتد من الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً.

٥ـ تمكنت الدولة من تحقيق الإشراف التام على النواحي المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات الضرائب أي أسهم ذلك في نجاح الدولة بخطها الإصلاحي.

٦ـ اتجه الموالي لتعليم اللغة العربية لكونها الطريق التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العالية، كما أدى من جهة أخرى إلى إشاعة اللحن في اللغة، مما دعا المسلمين إلى معالجة ذلك، ثم اندفع الموالي للتخلص من اللحن والخطأ وتعلم النحو ودراسته، فحدثت نهضة لغوية واسعة، وهذا يفسر لنا ظهور علماء كبار من الموالي في العصر الأموي ثم العصر العباسي.